مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 9 العدد 1 / جويلية 2023
ص ص 32-43

تداولية الإشاريات في روايات أسباب النزول القرآني

Pragmatic of Deictics in the Narratives of the Reasons for the Revelation of the Qur'an

عزوز سطوف [1]*، حسن كاتب [2]

[1] جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1، (الجزائر)، a.stouf@centre-univ-mila.dz

[2] جامعة الإخوة منتوري قسنطينة 1، (الجزائر)، hacenkatab@gmail.com

الاستلام: 2023/01/29 القبول: 2023/04/02 النشر: 2023/07/31

ملخص:

وسّعت التّداولية آفاق البحث اللّغوي والأدبي على السّواء نظرا لاتساع مجالاتها وتعدّد وغنى إجراءاتها، فضلا عن عنايتها بالظّروف الحافّة بإنشاء الخطاب وتأويله. ومن بين هذه المجالات التداولية اخترنا الإشاريات، هادفين إلى رصدها من القرآن الكريم فنبيّن مراجعها وإحالاتها وسياقاتها من لدن روايات أسباب النزول القرآني، كل ذلك بمنهج تداولي، ذلك، ويرُوم البحث إلى الإجابة عن الإشكاليات الآتية: ما التداولية؟ وما هي الإشاريات وما أنواعها؟ ما هي أسباب النزول القرآني؟ كيف تُسهم روايات أسباب النزول القرآني في بيان مراجع وإحالات الإشاريات وتفسيرها وتحديد مقاصدها؟

وقد خلصنا إلى نتيجة أساس مفادها أن الآية أو الآيات مع سبب نزولها تشكل سياقا واحدا، ومنه يُعلم مرجع الإشارة فيزول الإبهام والغموض فيتجلّي المقصود. لأن الإشاريات من المبهمات.

الكلمات المفتاحية : تداولية؛ إشاريات؛ أسباب النّزول القرآني.

Abstract:

Pragmatics expanded the horizons of linguistic and literary research alike due to the breadth of its fields and the multiplicity and richness of its procedures, as well as its attention to the critical conditions of creating and interpreting discourse. Among these deliberative fields, we chose, aiming deictics to monitor them from the Holy Qur'an, so we show their references and contexts from the narratives of the reasons for the revelation of the Qur'an, all with a deliberative approach. Therefore, the research aims to answer the following problems: What is pragmatic? What are deictics signs and what are their types? What are the reasons for the revelation of the Qur'an? How do the narratives of the reasons for the revelation of the Qur'an contribute to clarifying the references and referrals of the deictics, their interpretation, and the determination of their purposes?

We have come to a basic conclusion that the verse or verses, together with the reason for its revelation, constitute a single context, and from it the reference to the deictics is known, so the ambiguity and ambiguity disappears, and the intent becomes clear. Because the deictics are vague.

Keywords: Pragmatics; deictics; reasons for the revelation of the Qur'an.

* المؤلف المراسل

1.مقدمة:

بعد أن طبقّ المنهج التّداولي على أنواع مختلفة من الخطابات عربية الأصل فآتى بنتائج مرضية، وذلك مردّه إلى غنى الجهاز الإجرائي للتّداولية فضلا عن أنّها تعنى بدراسة اللّغة في الاستعمال؛ أي مربوطة بسياقات إنتاجها وتأويلها. لهذا ارتأينا أن نحاور بهذا المنهج الجديد ـ نسبيا ـ خطابا عربيا أصيلا وهو أسباب النّزول القرآني. واخترنا من بين المقاربات التّداولية الإشاريات.

ويروم البحث إلى رصد الإشاريات في القرآن الكريم ثم استقصاء مراجعها من لدن أسباب النزول القرآني، فالإشاريات من قبيل المبهمات والتي لا تظهر دلالتها إلا بعد تحديد مراجعها وعرضها على السياقات التي وردت فيها؛ كون الآية أو الآيات الكريمات مع سبب نزولها تشكل سياقا واحدا.

وينطلق البحث من الإشكالية الآتية: كيف تُسهم روايات أسباب النزول القرآني في بيان مراجع وإحالات الإشاريات ومن ثم تفسيرها وإظهار دلالاتها ومقاصدها؟

وقد خلصنا إلى نتيجة أساس مفادها أن الآية أو الآيات مع سبب نزولها تشكل سياقا واحدا، ومنه يُعلم مرجع الإشارة فيزول الإبهام والغموض فيتجلّي المقصود. لأن الإشاريات من المبهمات.

وقبل الشّروع في المقصود كان لزاما علينا أن نذعن لأعراف البحث العلمي القائلة برصد المفاهيم والمصطلحات التي تتّكئ عليها الدراسات. وبناء عليه سنعرض في هذا المقال ابتداء المصطلحات الآتية والتي يستند إليها بحثنا: التّداولية، الإشاريات، أسباب النزول القرآني.

2. الإطار المفاهيمي:

1.2. التداولية:

وقد توجّه الباحثون حديثا تلقاء التّداولية لتعدّد مقارباتها واتّساع مجال أبحاثها من جهة، ومن جهة أخرى قصور الدّراسات الشّكلية أو الصّورية وإدارة ظهرها للتّجلي الحقيقي للّغة وهو: الاستعمال التّواصلي بين النّاس وهذا ما حدا بعالم لغوي كليفنسون اعتبار أنّ الأساس الأوّل في نشوء المنهج التّداولي كان بمثابة ردّة فعل على معالجة "تشومسكي للّغة بوصفها شيئا تجريديّا أو قصرها على كونها قدرة ذهنية بحتة، غفلا من اعتبار استعمالها ومستعملها ووظائفها،ثمّ استعرض ـ ليفينسون ـ عددا من الدّوافع العّامة الّتي كانت وراء تطوّر المنهج التّداولي، إذ كان منها ما يتعلّق بالتّراكيب وتحديد المراجع، ومنها ما يتعلّق بدلالة الخطاب في السّياق، والتّعامل الاجتماعي بين طرفي الخطاب" (بوجادي، 2009، الصفحات 65,66)

فالبّاث يستقصي أنجع المسالك لينتج خطابا يؤثّر في المتلقّي كما أنّ الأخير يبحث عن أفضل طريق للوصول إلى مقاصد المتلقّي، "وهذه الإجراءات لا تتبلور عبر منظومة خوارزميّة تجريدية كما هو الحال في النّحو، بل عبر تقدير ذهني عام ومحتمل وفقا لعناصر السّياق "(Leech, 1996, p. 36)

وذهب بعض الباحثين محاولين رسم حدود التّداولية فعرفوها قائلين:

ـ التداولية: "هي الدّراسة أو التّخصص الّذي يندرج ضمن اللّسانيات، وتهتمّ أكثر باستعمال اللّغة في التواصل" (بلانشيه، 2007، صفحة 18.19)

ـ وتُعرّف التّداولية من وجهة نظر المُرسل بأنّها: "كيفية إدراك المعايير والمبادئ الّتي توجهه عند إنتاج الخطاب، بما في ذلك استعمال مختلف الجوانب اللّغوية، في ضوء عناصر السّياق، بما يكفل له ضمان التّوفيق من لدن المرسل إليه عند تأويل قصده وتحقيق هدفه" (الشهري، 2004، صفحة 22)

كما تُعنى التداولية بالعناصر غير اللّغوية وهي ما تعين على التأويل وتوجيه حرفية اللغة إلى غير وجهتها وهو من غير جنسها بالأساس كمظاهر الضّجيج وتعبيرات الوجه وأوضاع الجسد، وحركات الأيدي (Communication non verbale)، ومحتويات الوعاءين الزّماني والمكاني مما له كبير الأثر في الإيحاء والفهم، وكلها عوامل متى أُسيء استغلالها ترتب عنها تشويه المقاصد، وإعاقة الوصول إلى لب نتاج الدلالة الحقة التي هي وليدة علاقة العلامات بمستعمليها بوصفهم أحياء عاقلة ذوي أبعاد متعددة" (زيد، 2009، صفحة 19)

2.2. الإشاريات:

ونظرا لاتساع مفهوم التداولية وتعدد الروافد المعرفية التي تغذيها تعددت وفاقا مجالات ونظريات الدرس التداولي، ونحن فيما يلي سنفصل القول في الإشاريات فحسب لأنها موضوع دراستنا.

إذا فالتأشير (deixis) مصطلح تقني يستعمل لوصف إحدى أهم الأشياء التي نقوم بها أثناء الكلام، والتأشير يعني الإشارة من خلال اللغة ويطلق على أية صيغة لغوية تستعمل للقيام بهذه الإشارة مصطلح التعبير التأشيري deictic expression... وتعتمد جميع هذه التعابير في تفسيرها على متكلم ومستمع يتشاركان في السياق ذاته، وتستعمل التعابير التأشيرية بشكل أساس ومتزايد في التفاعل المنطوق وجها لوجه face –to- face، حيث يكون فهم لفظ مثل "الذي" في (1) يسيرا جدا على الحاضرين، ولكن الغائب قد يحتاج إلى ترجمة لفهمه.

(1) سأضع هذا هنا" (يول، 2010، صفحة 27)

وذهب جمهور التداوليين إلى أن الإشاريات أنواع، وفي الآتي نفصل في أهمها.

3.2. أنواع الإشاريات:

أ. الإشاريّات الشّخصية (Personal deictics):

أوضح الأدوات الإشارية الدالة على شخص هي ضمائر المتكلم، "والمقصود بها الضمائر الشخصية الدالة على المتكلم وحده: "أنا" أو المتكلم ومعه غيره:"نحن"، والضمائر الدالة على المخاطَب مفردا أو مثنى أو جمعا، مذكرا أو مؤنثا، وضمائر الحاضر هي دائما عناصر إشارية، لأن مرجعها يعتمد اعتمادا تاما على السياق الذي تستخدم فيه " (محمود أحمد أبو نحلة، 2002، صفحة 17. 18)، وتتوسع "تصنيفات التأشير هذه للمتكلم والمخاطَب ولغيرها لتضم مؤشرات المكانة الاجتماعية Markers (مثلا، الفرق بين مخاطب ذي مكانة عليا وأخرى دنيا) وتسمى دراسة الظروف التي أدت إلى اختيار إحدى هذه الصيغ دون سواها بالتأشير الاجتماعي Social deixis" (يول، 2010، صفحة 29)

على أنه قد يقع غموض في استعمال هذه الإشاريات الشخصية ومثال ذلك الضمير "نحن" الذي يحتمل تفسيرين مختلفين فهنالك "نحن" المستثنية (المتكلم مع الآخرين باستثناء المخاطِب) ونحن المشتملة (تضم المتكلم والمخاطِب)، و"يوفر الغموض الموجود ... فرصة مناسبة للمستمع ليقرر ما تم إيصاله، فإما أن يقرر أنه فرد من المجموعة التي تنطبق عليها القاعدة (أي أنه مخاطِب)، أو أنه دخيل لا تنطبق عليه القاعدة (ليس مخاطِبا) في هذه الحالة يقرر المستمع "الفائض" الذي يتم إيصاله " (يول، 2010، صفحة 31)

كما يدخل في الإشارة إلى الشّخص النداء، الذي هو طلب الإقبال بحرف نائب مناب أدعو، قصد تنبيه المخاطَب أو توجيهه أو استدعائه. ولا يفهم النداء إلا إذا كان المرجع الذي يشير إليه هو المنادى.

هذا ويدخل تحت الإشاريات الشخصية كل لفظ يحيل على شخص عامة كالأسماء الموصولة وغيرها.

ب ـ الإشاريّات الزّمانية (temporal deictics) :

الإشاريات الزمانية ألفاظ تدل على "زمان يحدده السياق إلى زمان المتكلم، فزمان التكلم هو مركز الإشارة الزمانية deictic center في الكلام فإذا لم يُعرف زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمانية التبس الأمر على السامع أو القارئ " (نحلة، 2002، صفحة 19)

والإشارات الزمانية من قبيل: اليوم، أمس، غدا، الآن، الأسبوع الماضي، و يوم الجمعة ...، فدلالاتها لا تتضح إلا بعد تحديد معلم زماني هو زمان التكلم أو مركز الإشارة الزمانية.

كما أن الإحالة الزمانية قد تستغرق المدة كاملة، كأن يقال: يوم الجمعة، وقد تستغرق جزءا من المدة كأن يقال: أكل زيد تفاحة يوم الجمعة، فأكل زيد للتفاحة لا يستغرق يوم الجمعة كاملا."وقد يتسع مدى بعض العناصر الإشارية إلى الزمان فيجاوز الزمان المحدد له عرفا إلى زمان أوسع" (نحلة، 2002، صفحة 20)؛ فقولنا مثلا: جيل اليوم يشمل العصر الّذي نعيش فيه،ولا تتحدد مدته بيوم وليلة وكل ذلك منوط بالسياق الذي سِيقت الإشارة فيه.

ومما تجدر الإشارة إليه أن صيغ الإشارية الزمانية قد تدل على الزمان الكوني الذي يفترض تقسيمه سلفا إلى سنوات وفصول وأشهر وأيّام ...، وقد تدلّ على الزّمن النحوي"، وقد يتطابقان في سياق الكلام، وقد يختلف الزمان النحوي عن الزمان الكوني فتستخدم صيغة الحال للدلالة على المُضي، وصيغة المُضي للدلالة على الاستقبال فينشأ بينهما صراع لا يحله إلا المعرفة بسياق الكلام ومرجع الإشارة فالزمن النحوي لا يطابق الزمان الكوني في كثير من أنواع الاستعمال " (نحلة، 2002، صفحة 21)

وقد تخرج هذه الإشاريات عن مقتضى الظاهر لتفيد معان أخرى تستفاد من السياق وقرائن الأحوال، كأن يقال لشخص: "صباح الخير" في المساء، لغرض التهكم والسخرية .

ج ـ الإشاريّات المكانية (Spacial deictics) :

وهي عناصر "إشارية إلى أماكن يعتمد استعمالها وتفسيرها على معرفة مكان المتكلم وقت التّكلم، أو على مكان آخر معروف للمخاطَب أو السامع ويكون لتحديد المكان

أثره في اختيار العناصر التي تشير إليه قربا أو بعدا أو وِجهة"(Katamba, 1996, p. 297)

ويميل فلاسفة اللغة إلى التفريق بين الإشاريات المكانية وظروف المكان واعتبارهما نوعين من أنواع الإشارة أما اللغويون فيميلون إلى اعتبارها صنفا واحدا يشار بها إلى المكان .

فهذه الإشاريات تختص"بتحديد المواقع بالانتساب إلى نقطة مرجعية في الحدث الكلامي، وتقاس أهمية التّحديد المكاني بشكل عام انطلاقا من الحقيقة القائلة أن هناك طريقتان رئيسيتان للإشارة إلى الأشياء هما: إما بالتسمية أو الوصف من جهة أولى، وإمّا بتحديد أماكنها من جهة أخرى"(Deirdre) . ونعني بالأخيرة أنها تحدّد نسبة إلى شيء أو مكان قارٍ هو بمثابة معلم ومرجع.

ولا يكتفي المتكلم ـ لتحديد المرجع للإشاريات المكانية ـ"بتعريفها بناء على موقع المرسل إليه واتجاهه فحسب بل بالنسبة للأشياء الأخرى التي يستعمل دوالها اللغوية في خطابه" (الشهري ظ.، 2004، صفحة 85)

ونسوق لهذا النوع من الإشاريّات المثال التالي:

(2) الكتاب فوق المكتب.

فيبقى مرجع الإشارة "فوق" غامضا، إذا ما تلفظ لوحده، فإذا اقترن بالدال اللغوي "المكتب" زال الإبهام. وهذه الظروف بصفة عامة لا يفهم معناها إلا بإضافتها إلى مرجع متفق عليه من لدن طرفي الخطاب .

وتصنف الإشاريات المكانية إلى صنفين: الأول: الأدنى للدلالة على القرب والقصي التي تدل على البعد.

إلا أن هذا التصنيف لا ينسحب على كل الإشاريات المكانية إذا تدخل العامل النفسي فيميل "المتكلم إلى معاملة الأشياء البعيدة ماديا على أنها بعيدة نفسيا (مثلا "ذلك الرجل هناك) ومع ذلك، قد يرغب المتكلم في جعل شيء قريب ماديا (مثلا، عطرا استنشقه) بعيدا نفسيا يقوله لا أحب ذلك (العطر)، وفقا لهذا التّحليل، فإن كلمة مثل "ذلك" لا تمتلك معنى دلاليا ثابتا ولكنها تشبّع بمعنى ما في سياق المتكلم " (يول، التداولية، 2010، صفحة 33)

2. 4. أسباب النزول القرآني:

أ ـ تعريف أسباب النّزول القرآني :

تعددت صيغ التعاريف الاصطلاحية لأسباب النزول القرآني، ولكنها تكاد تجمع على مفهوم واحد، ومن أهمها:

ـ "هو سؤال أو استفسار أو استيضاح أو استبيان أو واقعة، أو حادثة، أو قصة، أو حكاية وقعت ونزل القرآن من أجلها، مجيبا عنها مفصلا لها مؤصلا لحكم الله فيها " (عناية، 1987، صفحة 13)

ـ"هذا علم يبحث فيه عن سبب نزول سورة أو آية ووقتها، مكانها وغير ذلك من الظّروف والأحوال" (عبدالله، 1999، صفحة 76)

ـ "سبب النزول هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه " (الزرقاني، 1995، صفحة 99)

والمتمعن في التعاريف السابقة يجدها قاصرة على أمرين:

"ـ أن تحدث حادثة فينزل القرآن الكريم بشأنها.

ـ أن يُسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتنزل القرآن ببيان الحكم فيه " (العسقلاني، 2002، الصفحات 15,16)

ب ـ السبب و الابتداء :

وعند ذكر أسباب النزول القرآني نجد سؤالا يلح علينا وهو: هل لكل آيات القرآن الكريم أسباب نزول؟ يقول الإمام الجعبري: "نزل القرآن على قسمين: قسم نزل ابتداء وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال" (السيوطي، 1974، صفحة 29)

ويفهم من كلامه أنه ليس لكل نزول قرآني سبب، فكثير من الآيات والسور كانت تنزل ابتداء مجردة من سبب لنزولها، فمثل هذه الآيات لم تنزل "إجابة لسؤال، أو توضيحا لواقعة فلا يلتمس لها سبب، وإنما نزلت ابتداء، ولذا يجب التّفريق بينها وبين الآيات التي نزلت ولها أسباب " (عناية، 1987، صفحة 14)

ج ـ حالات اللّفظ مع السّبب:

وقد ذكر بعض أهل العلم أن القسمة العقلية لأحوال اللفظ مع السّبب في العموم والخصوص لا تُجاوز أربعة أحوال وهي:

ـ أن يكون السّبب عامّا واللّفظ النّازل عليه خاصا.

ـ أن يكون كلّ من السّبب واللّفظ النّازل عليه عامّا.

ـ أن يكون كلّ من السّبب واللّفظ النّازل عليه خاصّا.

ـ أن يكون السّبب خاصّا واللّفظ النّازل عليه عامّا."

3. الإشاريات في روايات أسباب النّزول :

مما يقتضيه مقام البحث أن نورد سبب النزول مقرونا بالآية المقصودة وذلك من أجل إسقاط أحدهما على الآخر لنتبيّن مراجع الإشاريات لتُزيل الإبهام عن الآية، أي أن سبب النزول يتضمن بصفة ظاهرة مرجع الإشارة في الآية القرآنية.

1.3. الإشاريات الشخصية في روايات أسباب النزول القرآني :

الإشاريات الشخصية هي كل لفظ يُحيل على شخص مهما كان نوع الإشارة ومن أمثلتها:

قوله تعالى: "إنّ الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون" [سورة البقرة، الآية 6]

"قال الضّحّاك:" نزلت في أبي جهل وخمسة من أهل بيته.

قلت: ونقله شيخ شيوخنا أبو حيّان عن الضّحّاك، ثم قال: "وقيل: نزلت في أهل القليب ـ قليب بدر ـ منهم: أبو جهل، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وعتبة بن أبي معيط، والوليد بن المغيرة " (العسقلاني، 2002، صفحة 71)

والإشارة الشخصية في هذه الآية هي الضمير المتصل "هم"، وصفتهم الكفر وعدم الإيمان سواء أأنذروا أم لم يُنذروا، فإيمانهم ميؤوس منه.

فـ "هم" في الآية إشارة شخصية لم يحددها السياق القرآني، لكن الإبهام سرعان ما يزول عندما نرجع إلى سبب نزولها المذكور آنفا.

وذكرهم بالتعريف بالموصول "لتعريف العهد مرادا منه قوم معهودون كأبي جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم من رؤوس الشرك وزعماء العناد دون من كان مشركا في أيام نزول الآية ثم آمن بعد كأبي سفيان بن حرب وغيرهم" (عاشور، 1984، صفحة 248)

وهنا تظهر فائدة سبب النّزول فهو فضلا عن كونه أزاح الإبهام عن الآية، عرّفنا على الّذين نزلت فيهم الآية على التّعيين حتّى لا يشتبهوا بغيرهم.

ومن مظاهر الإشاريات الشخصية النداء ومثاله: قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون" [سورةالأنفال، الآية27]

نزلت في" أبي لبابة بن المنذر الأنصاري، وذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم بأذرعات وأريحا من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة، وكان مناصحا لهم، لأنّ عياله وماله وولده كانت عندهم، فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتاهم فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه: إنه الذّبح فلا تفعلوا، قال أبو لبابة: والله مازالت قدماي حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله. فنزلت فيه هذه الآية " (الواحدي، 1992، صفحة 235)

في الآية محل التمثيل إشارة شخصية ظهرت على شكل نداء "يا أيها" ومعنى الآية "النهي عن خيانة الأمانة ... إن كانت الآية نازلت في قضية أبي لبابة: أن ما صدر منه من إشارة إلى ما في تحكيم سعد بن معاذ بن النضر عليهم يعتبر خيانة لمن بعثه مستفسرا، لأنّ حقّه أن لا يشير عليهم بشيء، إذ هو مبعوث ليس بمستشار، وإن كانت الآية نزلت مع قريناتها فنهي المسلمين عن خيانة الأمانة استطراد للاستكمال النهي عن أنواع الخيانة " (عاشور، 1984، صفحة 323)

فجاءت الآية بمعنى العموم لأن العبرة . كما أسلفنا . بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب، ثم إن نص سبب النزول فيه زيادة تفصيل للأحداث وللملابسات التي أحاطت بالخطاب القرآني واستدعت نزوله، "بينما نجد أن النص من القرآن غالبا ما يأتي مقتضبا موجزا لا يكاد يتجاوز الحكم على الواقعة أو الإجابة عن السؤال أو التعليق على الحادثة " (الرشيد، 1999، صفحة 44).

ولعل الفائدة المستفادة من ذكر من نزلت فيه الآية في سبب النزول هي تعيين من نزلت فيه حتى لا يشتبه بغيره، وهذا يعين على إنزال الناس منازلهم، فلو كانت الآية في سياق المدح والثناء ينبغي أن نثبت للممدوح منزلة تليق بما أنزله الله إيّاها وأما إن كانت في سياق الذمّ والتشهير والتشنيع فكذلك ينزل صاحب المذمة حيث أنزله الله عزّ وجلّ، "كما في تحديده إنصافا لغيره ممن اتهم بأن الآية قد نزلت بذمّه، فترفع التّهمة عنه ولا يعيّر بذلك" (الرشيد، 1999، صفحة 55). هذا مع العلم أن أبا لبابة قد تاب الله عليه لما أخلص التّوبة.

وممّا سبق من تمثيل للإشاريات الشخصية نقول بأن ذكر الآية مع سبب نزولها سياق واحد، حيث تُذكر الإشارة في القرآن عامّة ويخصصها سبب نزول الآية، فبعرضهما على بعضهما يتعيّن مرجع الإشارة ويزول الإبهام إن وجد.

2.3 . الإشاريات الزمانية في أسباب النزول:

الإشاريات الزمانية هي محددات ومحيلات على الزمن عامّة.

ومن الإشاريات الزمانية ما جاء في قوله جلّ جلاله: "يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل"[سورة التوبة، الآية 38]

وعن سبب نزولها أخرج ابن جرير عن مجاهد قال: "هذا حين أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وحنين أمرهم بالنّفير في الصيف حين طابت الثمار واشتهوا الضلال، وشقّ عليهم المخرج فأنزل الله: "انفروا في سبيل الله" (عناية، 1987، صفحة 288)

فسياق الآية لا يشير صراحة إلى زمن التثاقل وعدم إجابة داعي الجهاد، إلا مايستفاد من الأداة"إذا" التي هي هنا بمعنى "عندما"، لكن سبب نزول الآية ذكر بعضا ومنها ما كان دقيقا؛ فوقت نزولها كان حين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين للخروج إلى غزوة تبوك" وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام" (عطية، 2001، صفحة 34)، وفي الصيف تحديدا.

ومعرفة الزمن بدقة يطلعنا على عذر الذين رغبوا عن الجهاد؛ فالتثاقل هو تكلف الثقل، أي "إظهار أنه ثقيل لا يستطيع النهوض، والثقل حالة في الجسم تقتضي شدة تطلبه للنزول إلى أسفل، وعسر انتقاله، وهو مستعمل هنا في البطء مجازا مرسلا، وفيه تعريض بُطأهم ليس عن عجز، ولكنه عن تعلّق بالإقامة في بلادهم وأموالهم" (عاشور، 1984، صفحة 197)

كما يدخل تحديد الزمان في الثّبت التاريخي فسبب النزول السابق يصرح بتاريخين مهمّين؛ الأول: أن غزوة تبوك ـ التي كانت سبب النزول ـ كانت في التاسع للهجرة. والأخير: أن فتح مكة كان في الثامن من الهجرة. ويعلم جمهور العلماء ما للثّبت التاريخي من قيمة علمية في توثيق الأحداث.

ثم إن النص القرآني يأتي في الغالب عاما ليشمل حياة الناس كلهم، ويحمل في طياته أمرا أو نهيا أو معاتبة... يتجاوز زمان وملابسات نزوله، بينما يرد سبب النزول حاملا صورة واقعية واصفا للحادثة واضعا إيّاها في سياقها الزماني والمكاني مما يسهل إدراك الحكمة التي جاء القرآن الكريم ليراعيها.

ومن الإشاريات الزمانية قوله تعالى: "وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم" [سورة البقرة، الآية 229]

وفي سبب نزولها أخرج ابن جرير عن السدي قال: "نزلت في رجل من الأنصار يدعى ثابت بن يسار طلّق امرأته حتى إذا انقضت عدّتها إلا بيومين، أو ثلاثة راجعها ثم طلقها مضارّة، فأنزل الله تعالى: ولا تمسكوهنّ ضرارا لتعتدوا" (عناية، 1987، صفحة 121)

الإشارة الزمانية في هذه الآية هي: "بلغن أجلهنّ"؛ فالأجل في كلام العرب يطلق على المدة التي يُمهل إليها الشخص في حدوث حادث معيّن. والمراد بالأجل هنا "آخر المدة، لأن قوله "فبلغن" مُؤذن بأنه وصول بعد مسير إليه، أسند بلغن إلى النساء لأنهنّ اللاتي ينتظرن انقضاء الأجل، ليخرجن من حبس العدة، وإن كان الأجل للرجال والنساء معا؛ للأوليين توسعة

للمراجعة، وللأخيران تحديدا للحلِّ للتّزوج" (عاشور، 1984، صفحة 422)

وما فعله ثابت بن يسار أنه لمّا شارف الأجل ـ العدة ـ على الانقضاء بيومين أو ثلاثة راجع امرأته ثم طلقها، وذلك لتطول عدّتها من واحدة إلى اثنتين وتحبس بهما فلا يحلّ لها الزواج أثناءهما. فيسار أضرّ بزوجه لأنه علم ما للزمان هنا من قيمة لها.

فالتحديد الزمني الذي كان من لدن سبب النزول أضاف تفصيلا للآية، فضلا عن أنه كان سببا في نهي الشارع الحكيم عن هذا الفعل لأنه ضرار، و"أصل هذه الصيغة ـ فِعَالٌ ـ أن تدل على وقوع الفعل مثل: عافاك الله، والظاهر أنها هنا مستعملة للمبالغة في الضر، تشنيعا على من يقصده بأنه مفحش فيه" (عاشور، 1984، صفحة 423)

3.3. الإشاريات المكانية في روايات أسباب النزول القرآني:

ونقصد بها كل لفظ يحيل على مكان سواء أكانت إشارة صريحة مباشرة كذكر المكان صراحة أو إشارة غير مباشرة كأسماء الإشارة ودلالة الأفعال وغيرها.

ونسوق لهذه الإشاريات المثال التالي والذي جاء في قوله تعالى: "ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم"[سورة البقرة، الآية 198]

وعن سبب نزول هذه الآية الكريمة أورد ابن حجر العسقلاني: "كانت قريش ـ لا أدري قبل الفيل أو بعده ـ ابتدعت أمر الحُمُس، رأيا رأوه بينهم، قالوا: نحن بنو إبراهيم وأهل مثل ما تعرف لنا، فلا تعظّموا شيئا من الحِلّ كما تعظمون الحَرَم، فإنّكم إن عظّمتم ذلك استخفت العرب بحَرمكم، وقالوا: قد عظّموا من الحِلّ مثل ما عظّموا من الحَرَم، فتركوا الوقوف على عرفة، والإفاضة منها، وهم يعرفون أنها من المشاعر في دين إبراهيم، ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها " (العسقلاني أ.، 2002، صفحة 320)

والإشارة المكانيّة في الآية الكريمة هي الفعل "أفيضوا" وكذلك العبارة "من حيث أفاض الناس"؛ والإفاضة هي"الانخراط والاندفاع والخروج من المكان بكثرة، شبّه بفيض الماء والدّمع، فأفاض من الفيض لا من الفوض" (عطية، 2001، صفحة 34)

ومعنى قوله تعالى "من حيث أفاض الناس" هو الإشارة إلى"عرفات" وهي مكان معروف. وسياق الآية الكريمة لم يُحدّد بدقة المكان الذي يفيض منه الناس ولكن عندما نرجع إلى سبب نزولها يتضح لنا أن المقصود هو "عرفات". فجاء متضمّنا الوقوف بعرفة لا بغيرها "إبطالا لعمل قريش الذين كانوا يقفون يوم الحج الأكبر على "قزح" المسمى بمجمع وهو بالمشعر الحرام فهو من المزدلفة، وكان سائر العرب وغيرهم يقف بعرفات فيكون المراد بالناس في جمهورهم عدا قريش" (عاشور، 1984، صفحة 242)

وأهم الفوائد المحصلة من سبب نزول هذه الآية: أولا؛ تحديد المكان الذي يفيض منه الناس عادة وهي عرفة، وثانيا: تحديد المكان الذي تفيض منه قريش وهو "مجمع" بالمشعر الحرام بمزدلفة، وثالثا: الوقوف على سبب ابتداع قريش لأمر الحُمُس، وهو كونهم أفضل العرب وسكان الحرم، فرأوا أن يخالفوا جمهور العرب لهذا السبب.

وبصفة عامة رأينا ما لهذه الإشاريّات . المكانية . من توضيح وتحديد وتفصيل لمعنى الآية، فالذي يقرأ الآية الكريمة مع سبب نزولها يدرك ما تعنيه الإشارة المكانية "أفيضوا "و" من حيث أفاض النّاس".

والمثال الثاني: قوله تعالى:"وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلفك إلا قليلا" [سورة الإسراء، الآية 76]

نزلت هذه الآية في "كفار قريش همّوا بإخراج الرسول من بين أظهرهم، فتوعّدهم الله تعالى بهده الآية، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرا، وكذلك وقع، فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم، بعد ما اشتد أذاهم له، إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإيّاه ببدر على غير ميعاد، فأمكنه منهم وسلّطه عليهم وأظفره بهم، فقتل أشرافهم، وسبى سراتهم، ولهذا قال: "سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا" أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم، يخرج الرسول من بين أظهرهم ويأتيهم العذاب" (كثير، 2000، صفحة 1129)

ضمت الآية الكريمة إشارة مكانية هي"الأرض". لكن أي أرض؟ هذا ما أجاب عنه سبب نزول هذه الآية؛ الأرض هي مكة. كما أعانت دلالة الأفعال: يستفزوا، يخرجوا ولا يلبثوا في قوله تعالى:" وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلفك إلا قليلا". على توضيح الإشارة المكانية والتأكيد عليها لأنها ـ الأرض ـ المحور الذي تدور عليه الآية.

فالاستفزاز هو: "الحمل على التّرحل، وهو استفعال من فزّ بمعنى بارح المكان، أي كادوا أن يسعوا أن تكون فازّا أي خارجا من مكّة... .

والمراد بالإخراج: مفارقة المكان دون رجوع، و بهذا الاعتبار جُعل علّة للاستفزاز لأن الاستفزاز أعمّ من الإخراج ... واللُّثبث: الاستقرار في المكان، أي لا يستقرون في مكة بل يخرجون منها فلا يرجعون" (عاشور، 1984، صفحة 178)

وتقدير الكلام: إذا استفزوك من مكة ليخرجوك منها لا يلبثون بعدك فيها ـ مكة ـ إلا قليلا. إذًا فمكة هي محور الآية وكل الأفعال المذكورة تدور في فلكها.

فالذي لا يعلم بأن الأرض هي مكة يلتبس الأمر عليه، حتى يرجع إلى سبب نزول الآية الكريمة. ولعل عدم ذكر الاسم الصريح لمكة في هذه الآية هو أن لفظة "الأرض" معرفة بـ "ال" العهديّة؛ أي أنها أرض معهودة من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم يسكنها، إضافة إلى أن الشارع الحكيم قد ركز على فعل الإخراج كُرها من الوطن وهي الأرض لما فيه من ظلم وتعسف، لأن حبّ الأوطان مغروس في القلوب، والنفي والإبعاد يسبب جرحا نفسيا عميقا لا يندمل .

المثال الثالث جاء في قوله تعالى: "ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون (1) في بضع سنين (2) لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون" [سورة الروم: الآية، 1، 2]

جاء في سبب نزول هذه الآيات: "قال المفسّرون: بعث كسرى جيشا إلى الرّوم واستعمل عليهم رجلا يسمى شهريراز، فسار إلى

الرّوم بأهل فارس وظهر عليهم، فقتلهم وخرّب مدائنهم، وقطع زيتونهم، وقد كان قيصر بعث رجلا يدعى يحنس فالتقى مع شهريراز بأذرعات وبصرى وهي أدنى الشام إلى أرض العرب، فغلب فارس الرّوم، وبلغ ذلك النبي صلّى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة، فشق ذلك عليهم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكره أن يظهر الأميون من المجوس على أهل الكتاب من الروم، وفرح الكفار وشمتوا، فلقوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنكم أهل كتاب والنصارى أهل كتاب ونحن أميون، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم، وإنكم إن قاتلتمونا لنظهرن عليكم، فأنزل الله تعالى: ألم غلبت الروم في أدنى الأرض" (الواحدي، 1992، صفحة 344) والإشارة المكانية من لدن الآيات الكريمات هي"أدنى الأرض"؛ جاءت مبهمة غير معروفة لكن مرجعها حدده سبب نزول الآية، فأدنى الأرض هي: أذرعات وبصرى الشام وهي أدنى الأرض إلى أرض العرب وهذه الإشارة المكانية من قبيل أسماء المكان المبهمة وهي "الأسماء الدالة على مكان ليس له أقطار تحدّه وتحصره، ولا جهات تحيط به، وهي أسماء تفتقر إلى الإضافة، كي يتضح معناها حيث يكون معناها فيما أضيفت إليه، وهي الجهات الست وما في معناها" (بركات، 2007، صفحة 387)

إذاً فأدنى الأرض مبهمة، لكن عندما تحدّد بالإضافة يزول الإبهام، وبعد الإضافة يصبح الكلام على النحو الآتي: أدنى الأرض إلى أرض العرب، وهي الشام. ولعلّ الحكمة من عدم ذكر الإضافة هو تجنب الحشو، والاهتمام بأمر متقدم وهو غلبة الفرس للروم، وهو حدث مهم جدا لأنه أحزن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه كثيرا وشق عليهم.

وأتت "الأرض" معرفة بالعهد، أي أنها أرض هي أدنى أرض إلى أرض العرب، فهي معهودة لمن خوطب بهذه الآية، فأرض الشام كانت تابعة للروم وقتئذ.

ولفظ "بضع" كناية عن قصر مدة انتظار النصر إذ لا تتجاوز عشرة سنين، ولعلّ الحكمة من إبهام المدة تفادي الحشو، والعناية بما هو أهم وهو التبشير بنصر الروم، ورجاء المسلمين أن يكون في أقرب وقت. وذكر مكان الحدث ـ هزيمة الروم ـ يفيد قيمة تاريخية فيعد ثبتا وثائقيا بأن الشام كانت تابعة للروم، وكانت أدنى الأرض إلى أرض العرب، قبل فتحها وتحوّلها إلى راية الإسلام.

4. خاتمة:

مما سبق ذكره نخلص إلى النتائج الآتية:

ـ الآية الكريمة أو الآيات تشكل مع سبب نزولها سياقا واحدا؛ ففي الخطاب الأول تتموضع الإشارة وفي الأخير يُذكر عائدها.

ـ تحديد عائد الإشارة من لدن أسباب النزول القرآني يرفع الابهام عن الآية فبه يظهر المعنى ويتجلى المقصود.

ـ من مميزات الخطاب القرآني أن يرد مجملا عاما؛ وتأتي أسباب النزول لتفصل ذلك المجمل بذكر ما أُضمر واستتر. والإشاريات من قبيل تفصيل المجمل.

هذا، وتبقى التداولية ميدانا خصبا لتحليل الخطابات لغويا وأدبيا على حد السواء ومرد ذلك إلى غنى إجراءاتها واتساع وتنوع مجالات مقارباتها، ومرونتها وانفتاحها واستعانتها بمخرجات علوم إنسانية شتى. وما كنّا بصدده

من رصد وتحليل الإشاريات من لدن روايات أسباب النزول القرآني مثال عمّا قيل في حق التداولية.

5. قائمة المراجع:

1. بوجادي، خليفة، (2009)، في اللّسانيات التّداولية، بيت الحكمة، الجزائر.
2. بلانشيه، فيليب، (2007)، التّداولية من أوستين إلى غوفمان، تر صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، (سوريا).
3. الشّهري، عبد الهادي، (2004)، استراتيجيات الخطاب، دار الكتاب الجديد، لبنان.
4. أبو زيد، نواري سعودي، (2009)، في تداولية الخطاب الأدبي، بيت الحكمة، الجزائر.
5. جورج، يول، (2010)، التّداولية، تر قصي العتابي، الدّار العربية للعلوم، بيروت.
6. محمود، أبو نحلة أحمد، (2002)، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، مصر.
7. عناية، غازي، (1987)، أسباب النزول القرآني، دار الشهاب، الجزائر.
8. جلبي، مصطفى بن عبد الله، (1999)،كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، .
9. الزرقاني، محمد عبد العظيم،(1995)، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الكتاب العربي، لبنان.
10. العسقلاني، أحمد بن حجر، (2002)، العجاب في بيان الأسباب، دار ابن حزم، لبنان.
11. السيوطي، جلال الدين، (1974)، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
12. الرشيد، عماد الدين محمد، (1999)، أسباب النّزول وأثرها في بيان النّصوص، دار الشهاب، لبنان.
13. بن عطية، عبد الحق، (2001)، تفسير المحرر الوجيز، دار الكتب العلمية، لبنان.
14. بركات، إبراهيم، (2007)، النّحو العربي، دار النشر للجامعات، مصر.
15. الأندلسي، محمّد بن يوسف، (1993)، تفسير البحر المحيط، دار الكتب العلمية، لبنان.
16. leech, Geoffry, (1996) . principles of pragmatics, longman group limited, Lodon.
17. Ogrady, w- Dobrovolsky, M-katamba.f (1996) contemporary linguistics.an inroduction.longman.
18. Sperber Dan and Wilson Deirdre, Irony and the use- mention disinction in petercole (ed) radical pragmatics, academic press.